

نهضة الأدب وازدهاره في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية الشريفة

The renaissance and prosperity of literature in Medina after the noble Prophet's migration

د. سعاد سيد محجوب ضرار: أستاذ زائر في الأدب العربي، الجامعة الإسلامية بمينيسوتا بأمريكا

Dr. Suad Sayed Mahjoub: Visiting Professor in Arabic Literature, Islamic University of Minnesota, America

Email: suadsayedmahgoub@gmail.com

DOI: <https://doi.org/10.56989/benkj.v4i4.837>

الملخص:

البحث بعنوان نهضة الأدب وازدهاره في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية الشريفة، شهد المجتمع المدني تحولاً واضحاً وتطوراً كبيراً شمل مناحي الحياة المختلفة الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والأدبية؛ وأدت هذه السياسة الرشيدة التي انتهجها الرسول (ﷺ) في تصريف أول دولة إسلامية إلى استتباب الأمن والاستقرار؛ بالتالي استقرت كل مظاهر الحياة الأخرى؛ فشهدت الحياة الاجتماعية استقراراً متميزاً؛ لأن المجتمع بدأ يتخلص من عادات الجاهلية التي لم يقرها الإسلام.

شهد المجتمع المدني بعد الهجرة النبوية الشريفة تحولاً واضحاً في الحياة الأدبية والفكرية والثقافية وتبعاً لهذا التطور؛ الذي شمل مناحي الحياة المختلفة؛ تطور الأدب بشقيه، ونهض في المدينة بعد الهجرة النبوية الشريفة، والمقصود بنهضة الأدب وتطوره ما طرأ على الأدب بشقيه من تجديد وازدهار، حيث أحدثت الهجرة النبوية الشريفة نُقله نوعيه في الأدب الإسلامي، وهيأت له أسباب النهضة والازدهار، واستنهضت همم الشعراء والخطباء وحفزتهم؛ فوظفوا ملكاتهم الفنية ومواهبهم؛ لخدمة الدعوة الإسلامية، كما استثمر الشعراء قوافيهم وجندوها؛ لدحر أعداء الدين؛ والذب عن محارم الله تعالى ونصرة الرسول (ﷺ) وهكذا ألهمت الهجرة النبوية الشريفة القرائح ورفدتها بكنوز نفيسة، كما ألهبت المشاعر وأصبحت من مثيرات الشوق والحنين للديار الحجازية المقدسة، والمرابع النبوية الشريفة. على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم.

لقد تركت الهجرة النبوية الشريفة بصماتها الطيبة في النثر الفني، ونما وازدهر تحت مظلتها، وطرأت بعض ملامح التجديد في النثر الفني المدني، وتجلت هذه النهضة في الموضوعات، والمعاني والأسلوب، فضلاً عن الغاية أو الهدف منه.

الكلمات المفتاحية: الهجرة النبوية، النهضة الأدبية، القصيدة المدنية، الفنون النثرية.

Abstract:

The research is entitled The Renaissance and Flourishing of Literature in Medina After the noble Prophet's migration, civil society witnessed a clear transformation and great development that included the various religious, political, social, cultural, intellectual, and literary aspects of life.

This rational policy followed by the Messenger (peace be upon him) in managing the first Islamic state led to the establishment of security and stability. Consequently, all other aspects of life stabilized; Social life

witnessed distinct stability. Because society began to get rid of pre-Islamic customs that were not approved by Islam.

After the Prophet's noble migration, civil society witnessed a clear transformation in literary, intellectual, and cultural life, and because of this development; Which included different social classes; Literature, both parts of it, developed, and rose in Medina after the noble Prophet's migration. What is meant by the renaissance and development of literature is the renewal and prosperity that occurred in literature, both parts of it, as the noble Prophet's migration brought about a qualitative shift in Islamic literature and provided for it the reasons for renaissance and prosperity, and aroused and stimulated the aspirations of poets and orators; They employed their artistic talents and talents. To serve the Islamic call, poets also invested and recruited their rhymes. To defeat the enemies of religion; And abstaining from the prohibitions of God Almighty and supporting the Messenger (peace be upon him).

Thus, the noble Prophet's migration inspired the Qur'an and provided it with precious treasures. It also inflamed feelings and became one of the stimulants of longing and nostalgia for the holy lands of Hijaz and the noble Prophet's pastures. May the best of peace and complete peace be upon its owner.

The noble Prophetic migration left its good mark on artistic prose, and it grew and flourished under its umbrella. Some features of renewal occurred in civil artistic prose, and this renaissance was evident in the themes, meanings, and style, as well as its purpose or goal.

Keywords: Prophetic migration, literary renaissance, civil poetry, prose arts.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين وأسألك الله أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدراسة بعنوان "نهضة الأدب وازدهاره في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية الشريفة" هذه الهجرة التي غيرت ملامح المجتمع المدني، حيث تركت بصماتها الطيبة على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي.

اقتصر البحث على دراسة بعض جادت به قرائح الأدباء بعد الهجرة النبوية الشريفة للوقوف على بصمات النهضة الأدبية التي تمت في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية الشريفة.

من أهداف الدراسة الوقوف على أهمية الأدب في مسيرة الدعوة الإسلامية، والمهام الجسام التي حملها الشعراء والخطباء للذب عن حياض الإسلام والدفاع عن الرسول (ﷺ)، وما تم من إزدهار في مضمار الشعر والنثر.

تتلخص أهمية الدراسة في تناول النهضة الأدبية التي تمت في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية الشريفة للوقوف على مدى ما بلغه الأدب المدني بشقيه من تطور وازدهار بعد الهجرة النبوية الشريفة، عندما وظفه الرسول (ﷺ) في دعوته للإسلام، حيث استخدم سلاح الكلمة في مسيرة الدعوة الإسلامية.

اختارت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي؛ لملائمته لطبيعة الدراسة، ولما يتمتع به من مرونة وشمولية؛ تمكن الباحث من تحقيق أهداف الدراسة.

طرحت الدراسة عددًا من التساؤلات منها:

- ما مدى تأثير الأدباء بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه وأسلوبه؟
- هل ترك الأدب بصماته في مسيرة الدعوة الإسلامية؟
- هل اختلفت الأغراض الشعرية بعد الهجرة النبوية الشريفة؟
- ما أهم الأسباب التي أدت إلى ازدهار الأدب؟
- هل نهض الأدب في المدينة بالذوق العام بعد الهجرة النبوية الشريفة؟
- كل هذه التساؤلات وغيرها ستكون موضع البحث والتنقيب.

اهتم العلماء في شتى التخصصات العلمية بالكتابة عن الهجرة النبوية الشريفة، وتناولوها من شتى الزوايا وبرؤى مختلفة ومتباينة، ومن هذه الدراسات:

1. محمد، لهوير، دراسة بعنوان "أسرة أبي بكر الصديق ودورها في إنجاح الهجرة النبوية"، مجلة التذكرة، المجلس العلمي العدد، 12 الصفحات: 213-215 .

تحدث الباحث عن الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة من منظور تاريخي، والدور العظيم الذي قام به أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) وأسرته في هذه الهجرة المباركة، لم يبسط الباحث القول في الأحداث التاريخية.

2. عبد الوهاب، جان أزهار. الاستخبارات في العهد المكي دراسة تحليلية، مجلة العلوم الإسلامية والدينية، مجلد 4 العدد 1 يناير 2019م. الصفحات 35 – 55.

ناقشت الدراسة التجسس من منظور إسلامي، وأمنت الدراسة على أن هذا التجسس كان أول عمل للإستخبارات الحديثة، وذلك لتوضيح أهمية الدفاع عن الدعوة الإسلامية، وناقش أهمية الهجرة إلى الحبشة من أجل حماية المسلمين.

3. مبارك، هدى عبد الرحمن، المدينة المنورة في عيون شعراء الإحساء – كتاب أمام الأنبياء في الشعر الإحسائي أنموذجًا – مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – المجلد 22، العدد 61 أكتوبر 2023م.

من المحاور التي ناقشتها الدراسة ارتباط المدينة المنورة بالشوق للرسول (ﷺ) حيث ضم الكتاب موضوع الدراسة شعراء من منطقة الإحساء الذين أشاروا إلى فضل المدينة المنورة، ما يتمتعون فيها براحة وسكينة عند زيارتهم لها.

4. خيرى، عبيد، المدينة المنورة في عيون الشعراء، مجلة مركز دراسات بحوث المدينة المنورة العدد 3، ديسمبر 2002م، الصفحات 97 – 112.

عرض الباحث نماذج لشعراء من العصر الحديث الذين تنافسوا في الكتابة عن المدينة بأجمل القصائد، والتي عبّروا من خلالها عن حُبهم وشوقهم للمدينة، فتنوعت قصائدهم في مدح كل بقعة فيها، حيث يذكر الباحث هؤلاء الشعراء وقصائدهم، واصفاً ما تضمنته من معاني راقية تختص بالمدينة وفضلها ومكانتها.

مدخل تمهيدي:

بدأ عصر صدر الإسلام بنزول الوحي الكريم على سيد الأنبياء والمرسلين (ﷺ) وامتد إلى نهاية عهد الخلافة الراشدة التي امتدت حوالي ثلاثين عامًا، وانتهت بمقتل الإمام علي (رضي الله عنه) في السنة الأربعين من هجرة المصطفى (ﷺ).

أمضى الرسول (ﷺ) ثلاث عشرة سنة بمكة يبلغ رسالة ربه، ويجتهد في سبيل إعلاء راية الإسلام؛ لكن عندما اشتد عليه أذى كفار قريش أذن الله تعالى له بالهجرة إلى طيبة الطيبة، وكانت الهجرة النبوية الشريفة علامة فارقة في مسيرة الدعوة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام - حيث تركت بصماتها الطيبة في شتى مناحي الحياة.

امتدت فترة الدعوة في المدينة حوالي عقد من عمر الزمان، وفي هذه الفترة الوجيزة ازدهرت الحياة في شتى المجالات؛ بعد ان أرسى (ﷺ) أول حكومة إسلامية دستورها القرآن؛ فصارت هذه الدولة الركيزة الأساسية لبناء أسمى حضارة أخرجت الناس بفضل ربهم من الظلمات إلى النور، وغرست فساتل الرفاهية لسعادة الإنسانية؛ إذ استتب الأمن من الناحية السياسية؛ وذكر هيكلي: "كان أكبر همه (ﷺ) أن يصل ببيثرب موطنه الجديد إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في أنحاء الحجاز" (هيكلي، 1977).

أدت هذه السياسة الرشيدة إلى استتباب الأمن والاستقرار؛ بالتالي استقرت كل مظاهر الحياة الأخرى؛ فشهدت الحياة الاجتماعية استقرارًا متميزًا؛ لأن المجتمع بدأ يتخلص من عادات الجاهلية السيئة؛ ومنها أيامهم التي زخر بها ديوانهم، وما وصفوا هذه الأيام وأرخوا لها؛ إلا لأنها شغلت حيزًا كبيرًا في حياتهم التي كانت تقوم على الحرب؛ إذ كان الرجل منهم إما قاتل أو مقتول؛ لأن الحرب كانت تشن لأتفه الأسباب، وتطحنهم طحن الرحي بثقالها، واستقرت الحياة الاقتصادية وازدهرت التجارة، وأمنت القوافل من السلب والنهب؛ التي كانت مصدرًا من مصادر كسب العيش يومئذ، وكانوا يسمونها الجعل، وهكذا شمل الإزدهار كل مناحي الحياة وتغيرت ملامح المجتمع المدني. (النسبة إلى مدينة "مَدَنِي" على وزن "فَعَلِي").

مما سبق نستنتج: أن التعاليم الإسلامية هذبت النفوس وسمت بها؛ لأن الإسلام رفدهم بالقيم والمبادئ والمكارم على الرغم من معرفتهم لبعضها، لقوله: (ﷺ) "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ" (البخاري، 1994).

كما شهد المجتمع المدني تحولًا واضحًا في الحياة الأدبية والفكرية والثقافية وتبعًا لهذا التطور؛ الذي شمل مناحي الحياة المختلفة؛ تطور الأدب بشقيه، ونهض في المدينة بعد الهجرة النبوية الشريفة، والمقصود بنهضة الأدب وتطوره ما طرأ على الأدب بشقيه من تجديد وازدهار.

السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، وكذلك بالنسبة للغة العربية، وكما رفد القرآن الكريم معجم اللغة والأدب بالمفردات والصور والمعاني والأسلوب؛ كذلك رفدت السنة النبوية اللغة والأدب بشقيه، بالمفردات والأسلوب؛ فارتقى الحس الأدبي، وسما الذوق الفني، وتجلّى هذا الأثر الطيب فيما جادت به القرائح من نظم ونثر.

أثر الهجرة النبوية في شعراء المدينة:

بعد هجرته (ﷺ) نهضت الحركة الشعرية في المدينة المنورة، وأصبح الشعر من الأسلحة الفتاكة؛ التي استخدمها المسلمون لردع الكفار وقهرهم، خلافاً لما كان عليه الحال في مكة؛ لأن المسلمين بها يومئذ كانوا أقلية، مستضعفة من الناحية المعنوية فضلاً عن ضعف قوتهم المادية؛ أما في المدينة فقد ازداد عدد المسلمين وقويت شوكتهم؛ وبرز عدد من الشعراء ينافحون ويدافعون عن محارم الله، ويذوبون عن حياض الإسلام ورسوله الكريم (ﷺ).

استنفر (ﷺ) ثلة من الشعراء للدفاع عن الإسلام بألسنتهم؛ مما يدل على أن سلاح الشعر كان له من قوة التأثير ما لا يقل عن السلاح المادي، وهكذا شمر شعراء المدينة عن سواعد الجد؛ للذود عن حياض الإسلام، وجندوا ألسنتهم للدفاع عن الدين الجديد، ووظفوا أدواتهم الفنية واستثمروا مواهبهم وملكاتهم الأدبية، كذلك التزم الشعراء بنهج نبيهم الكريم (ﷺ)؛ الذي بُعث متمماً لمكارم الأخلاق.

جاءت قوافي الشعراء صادقة ومعبرة وحملت بين أحشائها القيم والفضائل، من سماحة وحسن خلق، ونبذت مساوئ الأخلاق وعافتها، وشعراء المدينة الذين شرح الله تعالى صدورهم للإسلام بعد الهجرة النبوية أكثر، يضيق المجال ولا يتسع لذكرهم، ويتصدرهم حسان بن ثابت، الذي وصفته السيدة عائشة (رضي الله عنها) بشاعر الرسول (ﷺ). وهكذا نهض الشعر في المدينة بعد الهجرة النبوية الشريفة ونما وازدهر، ومن أسباب نهضته وتطوره ما يلي:

أولاً: أهم سبب من أسباب نهضت الشعر في المدينة بعد الهجرة النبوية؛ كان وجود الرسول (ﷺ) بين ظهرانيهم وكان هذا هو المحرك الأساسي لنهضة الأدب بشقيه، وفاخر عبد الله بن رواحة بذلك في قوله: "فينا النبيّ وفينا تنزلُ السُّور" (قصاب، 1981) كان (ﷺ) يعلمهم القرآن، ويهذب تصرفاتهم ويرشدهم؛ لما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة فتهدبت نفوسهم وسمت وارتقت، وقرأوا القرآن وفهموا معانيه وعملوا بما جاء فيه، فأصبح القرآن نهجاً ودستوراً يسير أمور حياتهم الخاصة والعامة، والثقافية والفكرية، وورد في معجم مصطلحات الأدب: "لولا نزول القرآن الكريم، وتناول المسلمين تلاوته وتعلمه فيما بينهم، وترداده في كل نادٍ ومكان ومسجد، لما حفلت دواوين الشعراء بمثل هذه التراكمات كثرة وانتشاراً وتوسعاً" (شوشة، 2007).

ثانيًا: من أسباب نهضة الشعر وتطوره في المدنية شعراء المدينة أنفسهم؛ إذ واكبوا متطلبات الحياة الجديدة التي تدرت بسماحة الإسلام، واجتهدوا في تطوير أنفسهم والسمو بملكاتهم الفنية ومواهبهم؛ وعكفوا على قراءة القرآن وتعلمه، وأدهشتهم المفردة القرآنية بفصاحتها وجزالتها، كذلك الأسلوب القرآني وما فيه من سحر حلال؛ فأخذوا يرتشفون من معين القرآن العذب، وأضاف كل شاعر إلى معجمه الشعري ما هذب قوافيه وسما بحسها الفني، وكان كل شاعر منهم فحلًا مجيدًا قبل إسلامه، كما وصف ابن قتيبة كعب بن زهير "وكان كعب فحلًا مجيدًا" (الجمحي، 1974)، لكن على الرغم من علو كعبه في الشعر قبل إسلامه؛ لكن بعد إسلامه سعى من أجل تطوير قوافيه وتهذيب لسانه، تحت مظلة التعاليم الإسلامية؛ فسمت قوافيه ونهضت بالشعر؛ لأن مفرداته استمدت سموها من سمو المفردة القرآنية.

ثالثًا: كذلك من أسباب نهضة الشعر المدني اهتمام الرسول بالشعر والشعراء؛ كان (ﷺ) يستنشده، ويحفظ الشعراء بالعطايا المادية والمعنوية، وكثيرًا ما كان يقسم لهم من الغنائم ويجزئ لهم العطاء؛ بل ويساعدهم بنقده لبعض المفردات؛ كما حدث مع كعب بن زهير؛ عندما طلب منه أن يعدل من (مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ الْهِنْدِ) فغيرها إلى "مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ" (المرزباني، 2005)، وعندما أنشد النابغة الجعدي: "وَإِنَّا لَنَرُجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا" سأله (ﷺ) إلى أين المظهر يا أبا ليلى فقال الجنة معك واستحسن الرسول (ﷺ) رده" (الصمد، 1998).

رابعًا: من الأسباب التي أدت إلى النهضة الأدبية في المدينة الجمهور المُتلقِي؛ فقد سما ذوقه وحسه الأدبي وأدهشهم الأسلوب القرآني؛ لذا كان لابد للشعراء أن يرتقوا إلى ذوق جمهور المسلمين؛ الذين عافوا المعاني القديمة وتطلعوا لمواكبة روح العصر؛ الذي تشبع بالتعاليم الإسلامية والسنة النبوية الشريفة، وأكبر شاهد على ذلك عندما كان عبد الله بن رواحه يهجو كفار قريش بالكفر وعدم الإيمان كانوا لا يلتفتون إليه ولا يؤثر فيهم شعره بقدر ما كانوا يتأذون من شعر حسان بن ثابت؛ لأنه كان يغمز في أنسابهم ويطعن في أحسابهم؛ لكن بعد أن شرح الله تعالى صدورهم للإسلام وجدوا أن شعر ابن رواحه أشد وطأة عليهم من شعر حسان؛ لأن الحسب والنسب لا يعني أي شيء أمام الكفر أو عدم الإيمان، فالذائقة العامة أثر فيها القرآن الكريم وأصبحت تتطلع لما هو أسمى، وتترفع عن الصغائر الدنيوية.

خامسًا: كانت الحروب والغزوات من عوامل نهضة الشعر المدني بعد الهجرة النبوية الشريفة، وقد لا يغيب عن البال أن غزواته وقعت بعد الهجرة النبوية ولله حكمة في ذلك؛ لأن فترة الدعوة المكية كان الهدف منها تثبيت العقيدة، والحروب التي دارت رحاها بين المسلمين والكفار ألهبت مشاعر المسلمين وجُلهم كانوا يقرضون الشعر، وكان كلما حمي الوطيس التهبت ألسن شعراء

المسلمين وجادت بالقوافي الندية، وهذه القوافي كانت لا تقل شأنًا من السيوف والرماح وغيرها من آليات الحرب الأخرى، وكانت أشد وطأة عليهم من وقع النبل.

هكذا كانت الحرب من العوامل المهمة؛ التي نهضت بالشعر وجُل المعارك التي دارت بين المسلمين وجيوش الكفر كانت في المدينة، وأشار وحيد بالي إلى عدد غزواته: "بلغ عددها سبعةً وعشرين غزوة...، أما سراياه ثلاث وسبعون سرية" - الغزوة هي المعركة التي شارك فيها النبي ﷺ بالخروج والقيادة لها، أما السرية فهي بخلاف ذلك، أي لم يشهدها النبي ﷺ وكانت بقيادة أحد الصحابة (رضي الله عنهم) (بالي، 2003)، لذلك تفوق الشعر المدني على الشعر المكي في هذه المضمار.

مما سبق نستنتج أن النهضة الأدبية شملت الأدب بشقيه، وكان للشعر المدني نلاحظ أنه تميز بصدق العاطفة والمفردات السامية، والمعاني الشريفة والصور الشعرية الجميلة، كذلك سمت الأخيلة، وارتقت الأفكار، أما الأساليب الشعرية ازدهرت ونمت.

في مضمار الأغراض الشعرية من مدح وفخر وغزل وهجاء ورتاء واعتذار؛ فقد ظلت على ما هي عليه من ناحية موضوعية؛ لكن اختلف تناول الشعراء لهذه الأغراض الشعرية، واستحدثت بعض الأغراض الشعرية؛ لتتناسب طبيعة المرحلة أو لتواكب مسيرة الدعوة الإسلامية، والمحور التالي سوف يبسط القول في ملامح النهضة التي طرأت على القصيدة المدنية.

أولاً: الأغراض الشعرية في القصيدة المدنية بعد الهجرة

الموضوعات الشعرية التي تناولها شعراء المدينة تدور في فلك الموضوعات الشعرية؛ التي تناولها شعراء الإسلام بصورة عامة، وشعراء العصر الجاهلي بصورة خاصة؛ وعلى الرغم من التزام الشاعر المدني بهكيل القصيدة الجاهلية ووزنها وأغراضها؛ لكنه أضاف على الأغراض الشعرية روحاً إسلامية، ورفدها بتعاليم الإسلام، وقيمه السامية؛ وهكذا اختلف تناول الشاعر المدني للأغراض الشعرية؛ لأن نفسه التي فُطرت على الفطرة السوية ووعت القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عافت بعض ما درج عليه الشاعر الجاهلي؛ من عادات وتقاليد وأعراف لم يقرأها عليها الإسلام؛ لقد حرم الإسلام بعض العادات والتقاليد وهذب بعضها وأمن على بعضها.

المحور التالي سوف يبسط القول في الأغراض الشعرية كما تناولها شعراء المدينة؛ والأغراض الجديدة التي استحدثت، ومعالم التجديد التي طرأت على القصيدة المدنية، مما أدى إلى نهضتها وازدهارها؛ حتى نقف على كيفية تناولهم لهذه الموضوعات الشعرية؛ التي طبعت بالطابع الإسلامي وبروح إسلامية بعيداً عن التعصب أو الفحش؛ ومن ثم نستطيع أن نستخلص النهضة التي أحدثتها الهجرة النبوية الشريفة في مضمار الشعر ومن الأغراض التي تناولها شعراء المدينة ما يلي:

• غرض المدح:

كان الغرض منه العطاء المادي، وبعد نزول الوحي اختلف التوجه والغرض منه، ومدح شعراء المدينة الرسول (ﷺ) يعني تمام الطاعة لله تعالى ثم حبهم له (ﷺ)، ولم يرغبوا في أي عطاء مادي؛ وكانوا يحتسبون الأجر والثواب من عند الله تعالى، ومن ذلك همزية حسان بن ثابت حيث يقول: (مهنا، 1994).

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ هِ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ

لقد جند حسان نفسه للدفاع عن الرسول (ﷺ)، وجادت قريحته بعرائس شعره، وكان يبتغي الأجر والثواب فقط من عند الله تعالى، لا يرجو أي مكسب مادي أو عرض من أعراض الدنيا الزائلة. ونستنتج أن الإسلام نقل حسان من شعر التكسب إلى شعر أسمى حيث أصبح يحتسب الأجر والجزاء من عند الخالق لا المخلوق.

من مظاهر التطور الذي طرأ على الشعر المدني أن الشاعر يمدح حتى أصحاب النبي (ﷺ)، فإذا كان الشاعر الجاهلي قديماً يمدح نُدماً الممدوح وجلسائه، وبعد نزول الوحي أصبح الشاعر يربط مدحه (ﷺ)، بمدح أصحابه (ﷺ)؛ لأنهم عززوه ووقروه ونصروه وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم للذب عنه، وأنشد كعب بن زهير في مدح المهاجرين: (فاعور، 1997).

بَبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُؤَلُوا

جج

عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَاذِلُ

ججج

مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

ج

كَأَنَّهُ حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ

ج

قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيْعًا إِذَا نِيلُوا

جج

صَرَبْتُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ

فِي فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ

ج

زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ

شُمُّ الْعَرَانِيْنَ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمْ

بِيضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شَكَّتْ لَهَا حَلَقٌ

لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ

يَمْشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزُّهْرِيْعِصْمُهُمْ

ج

• غرض الفخر:

تحول الفخر بفضل الله تعالى إلى الفخر بالقيم والمبادئ الإسلامية، التي وردت إليها النفوس الصادية فأطفت حرها، وكانت محاور فخرهم تدور حول الدين الإسلامي؛ الذي من الله تعالى عليهم به وأخرجهم بفضل من الظلمات إلى النور، ومن الشرك والضلالة إلى نور الحق والمبين، وأرسل إليهم رسولاً يعلمهم آيات ربهم ويهديهم إلى صراطه المستقيم. وافتخر أبو بكر الصديق بنعمة الإسلام وما أصبغ عليهم من نعم كثيرة (البيطار، 1993).

| | |
|---|---------------------------------------|
| إِنْعَامُهُ مِنْ أَفْضَلِ الْإِنْعَامِ | الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْإِسْلَامِ |
| ج | جج |
| وَإِخْتَصَّنا بِأَحْمَدَ التَّهَامِي | أَسْكَنَّا بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ |
| ج | ج |
| مِنْ لَدُنِ الْمُهَيْمِنِ الْعَلَامِ | فَجَاءَنَا بِصُخْفٍ جِسَامِ |
| لِلنَّاسِ بِالْإِرْضَاءِ وَالْإِرْغَامِ | فِيهَا بَيَانُ الْحِلِّ وَالْحَرَامِ |
| وَبِالصَّلَاتِ لِذَوِي الْأَرْحَامِ | وَالْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ |

من مظاهر التجديد في غرض الفخر بعد الهجرة النبوية؛ قول النابغة الجعدي في رأيته؛ حيث ضمخ قصيدته بعدد من المفردات التي تدل على عمق إيمانه وصدقته: (الصمد، 1998).

| | |
|--|--|
| وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرًا | أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى |
| ج | ج |
| إِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا | بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدًا وَجُودًا وَسُؤْدَدًا |
| | جج |

• غرض الهجاء:

رغب الشعراء عن الهجاء المقذع؛ وروى عبد الله بن رواحه أن الرسول دعاه، فقال له: كيف تقول الشعر إذا قلت؟ قال أنظر في ذلك ثم أقول. قال: فعليك بالمشركين

ج جَحْرُونِي أَثْمَانَ الْعَبَاءِ مَتَى كُنْتُمْ بَطَارِيقَ أَوْ دَانَتْ لَكُمْ مُصْرَ

جج

فظهرت الكراهة في وجه الرسول (ﷺ)، أن جعل قومه أثمان العباء " (حوي، 1995).

• غرض الرثاء:

اختلف التوجه في تناول غرض الرثاء بعد نزول الوحي وأصبح الشاعر يبكي في الميت السؤدد، ويعدد مناقبه وفضائله؛ كما ورد في ميمية الزبرقان بن بدر في رثائه للرسول (ﷺ) (عبد الجابر، 1984).

بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرُ الْأَنَامِ أَلَيْتُ لَا أَبْكِي عَلَى هَالِكِ

ج

ج

مِنْ حَيْرَةٍ كَانَتْ وَبَدَرَ الظَّلامِ

بَعْدَ الَّذِي كَانَ لَنَا هَادِيًا

فِينَا وَيَا مُحْيِي لَيْلِ النَّمَامِ

جج

ج

وَشَارَعَ الْجِلَّ لَهُمَ وَالْحَرَامِ

وَهَادِي النَّاسِ إِلَى رُشْدِهِمْ

جج

كُنَّا عَلَى مَهْوَاةٍ جُرْفِ قِيَامِ

أَنْتَ الَّذِي اسْتَنْقَذْتَنَا بَعْدَمَا

ج

يَامُهُ عِنْدَ حُضُورِ الْحَمَامِ

فَاسْتَأْنَرَ اللَّهُ بِهِ إِذْ وَفَى

ج

من شوارع المدينة المشهود لهن بالدمعة السخينة والكلمة المعبرة؛ تَمَاضُرُ بِنْتِ عَمْرُو (الخنساء، ت 24هـ) جاءت رائيتها وحروفها تتفجع وتتوجع على صخر؛ وبكت فيه ورعه ونبله وشهامته وشجاعته: (حمدو، 2004).

جَدُّ جَمِيلٌ الْمُحَيَّا كَامِلٌ وَرِعٌ وَلِلْحُرُوبِ غَدَاةُ الزَّوْعِ مِسْعَارٌ

ج

شَهَادُ أَنْدِيَّةٍ لِلجَيْشِ جَرَّارٌ

جج

ج

حَمَالُ أَلْوِيَّةٍ هَبَّاطٌ أُوْدِيَّةٌ

• غرض الغزل:

استهل شعراء المدينة مطالع قصائدهم بالغزل العفيف، وكان الشاعر يرمز إلى محبوبته رمزاً كما فعل كعب بن زهير في لاميته، وكثيراً ما يستعويض بذكر المحبوبة بذكر المربع النبوية الشريفة؛ وإلى هذا المعنى أشار ابن حجة الحموي: "الغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه، ويتشبه مطرباً بذكر سَلْع، وراممة، وسفح العقيق، والعَدَيْب، وبارق، والغَوَيْر، ولُغَلْع، وأكناف حاجر وي طرح ذكر التغزل...،" (الحموي، د. ت) وقد يضرب الشاعر المدني عن المطلع الغزلي صفحاً ويعرض عنه، ويترك أسبابه ومهيجاته، ويتناول غرضه الأساسي كما في بائنة حسان؛ عندما أراد وصف الجيوش؛ التي أرادت أن تغزو مدينة الرسول (ﷺ)؛ لذا أعرض صفحاً عن المطلع الغزلي وصرح بذلك في قوله: (مهنا، 1994).

بَيْضَاءُ أَنْسَةِ الْحَدِيثِ كَعَابٍ

ج

مِنْ مَعَشَرٍ مُتَأَلِّبِينَ غِضَابٍ

ج

دَعِ الدِّيَارَ وَذَكَرَ كُلَّ خَرِيدَةٍ

جج

وَإِشْكُ الْهُمُومِ إِلَى الْإِلَهِ وَمَا تَرَى

ج

أحياناً قد يتخذ الشاعر من المطلع الغزلي مطية ليدلف إلى مدح خير الورى (ﷺ)، وقد يلجأ إلى الرمز، وينادي محبوبته بأسماء من صميم البيئة المحلية؛ فهي تارة سعدى أو سعاد ومرة لبنى وليلى؛ وكل ذلك ما هو تعبير عن لواعج شوقه وحنينه أو جرياً وراء سنة قد خلت.

• غرض الاعتذار:

الاعتذار من الموضوعات التي استحدثتها النابغة الذبياني (ت 18 ق.هـ) في اعتذارياته للملك قابوس وسار كعب بن زهير على دربه عندما مثل بين يدي المصطفى (ﷺ) بغرض طلب العفو والسماح؛ عما بدر منه أيام ضلالته حيث يقول: (فاعور، 1997).

وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

ججج

فُرَانَ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ

ج

أُذْنِبُ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّي الْأَقَاوِيلُ

جج

أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفَيْلُ

جج

مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلُ

جُنْحَ الظَّلَامِ وَثَوْبُ اللَّيْلِ مَسْبُولُ

ج

فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قَبْلَهُ الْقَيْلُ

وَقِيلَ إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْئُولُ

ج

ج

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي

مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ

ج

لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ

ججج

لَقَدْ أَقَوْمُ مَقَامًا لَوْ يَقَوْمُ بِهِ

لَطَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ

مَازَلْتُ أَقْتَطِعُ الْبَيْدَاءَ مُدْرِعًا

حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أَنْزِعُهُ

ج

لِذَلِكَ أَهَيْبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلِمَةُ

قوله: منسوب أي مسؤول

من الشعراء المدنيين؛ الذين اقتدوا بكعب بن زهير، الشاعر أنس بن رُنَيْمٍ (ت 60هـ) واعتذر
عما بدر منه في داليتة التي استهلها بمدح الرسول (ﷺ) يستعطفه؛ ليعفو عنه: (ابن هشام، 1990)

بَلِ اللَّهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ اشْهَدُ

جج

أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ

أَأَنْتَ الَّذِي تُهْدِي مَعَدًّا بِأَمْرِهِ

ج

وَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا

ج

ثم يدلغ إلى الغرض الأساسي؛ الذي من أجله أنشد قصيدته وهو الاعتذار عما بدر منه أيام
ضلالته: (ابن هشام، 1990).

| | |
|--|--|
| وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ | تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي |
| عَلَى كُلِّ صِرْمٍ مُنْهَمِينَ وَمُنْجِدِ | تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ |
| هُمُ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلِفُونَ كُلَّ مَوْعِدِ | تَعَلَّمَ بِأَنَّ الرِّكْبَ رَكْبُ عُوَيْمِرِ |
| جج | ج |
| فَلَا حَمَلَتْ سَوَاطِي إِلَيَّ إِذْ نِيَّي | وَنَبِئُوا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي هَجَوْتُهُ |
| جج | جج |
| أُصِيبُوا بِنَحْسٍ لَا يَبْطُلُ وَأَسْعُدِ | سِوَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُ وَيْلُ أُمَّ فِتْيَةٍ |
| كِفَاءً فَعَرَّتْ عِبْرَتِي وَتَبَلَّدِي | فَأَنَّكَ قَدْ أَحْفَرْتَ إِنْ كُنْتَ سَاعِيًا |
| ج | ج |
| هَرَقْتُ تَبَيَّنَ عَالِمَ الْحَقِّ وَأَقْصِدِ | فَأِنِّي لَا دِينَأَ فَتَقْتُ وَلَا دَمًا |
| جج | |

نلاحظ التناص في الأفكار والمعاني بينه وبين كعب بن زهير، وحدث أن أعلن أبو سفيان إسلامه يوم فتح مكة (8 هـ) وأنشد يعتذر عما بدر منه أيام ضلالتة: (ابن هشام، 1990)

| | |
|---|--|
| لَتَغْلِبَ حَيْلُ اللَّاتِ حَيْلَ مُحَمَّدٍ | لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةَ |
| فَهَذَا أَوَانِي حِينَ أُهْدَى وَأُهْتَدِي | لِكَالْمُدْلِجِ الْحَيْرَانَ أَظْلَمَ لَيْلُهُ |

كذلك من مظاهر تطور الشعر المدني في مدح الرسول (ﷺ) تناول الشعراء لشفاعته (ﷺ) وهي الملجأ والملاذ من أهوال يوم القيامة؛ فقد سما الإسلام بالنفوس؛ والتجأ ابن رواحه إلى الله يطلب منه المغفرة: (قصاب، 1981).

| | |
|---|---|
| يَوْمَ الْحِسَابِ فَقَدْ أَرَى بِهِ الْقَدْرُ | أَنْتَ النَّبِيُّ وَمَنْ يُحْرَمُ شَفَاعَتَهُ |
| | جج |

نستنتج أن محاور الأغراض الشعرية لم تتغير؛ لكن صبها شعراء الإسلام في قوالب إسلامية؛ فأحدثوا نُقله نوعيه فيها، وسمت بسمو الأهداف؛ التي أنشدت من أجلها، وسار شعراء المدينة على هذا النهج.

• غرض الوصف:

الشعر كله وصف وكانت الطبيعة قد سحرت الشاعر البدوي؛ فوصف وهادها وجبالها وزروعها ورمالها وحيواناتها واستعار من الطبيعة الساكنة والمتحركة الصفات الجميلة وشبه بها محبوبته، ووظف شعراء الإسلام غرض الوصف ووصفوا كل ما يمت للسيرة النبوية العطرة ومسيرتها الطيبة، ومن ذلك وصف أبي بكر الصديق لما حدث يوم الهجرة في الغار: (البيطار، 1993)

قَالَ النَّبِيُّ وَلَمْ أَجْزَعْ يُوقِّرُنِي وَنَحْنُ فِي سُدْفَةٍ مِنْ ظُلْمَةِ الْغَارِ

جج

لَا تَخْشَ شَيْئًا فَإِنَّ اللَّهَ تَالِثُنَا وَقَدْ تَوَكَّلْنَا مِنْهُ بِإِظْهَارِ

الهدف من وصف معجزاته (ﷺ) تجعل المؤمن يزداد إيمانًا و يقينًا، أما الذين أعمى الله أبصارهم وبصيرتهم فما تزيدهم المعجزات إلى حيرة قال تعالى ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، (الحجر 15 - 16)، كذلك وصف معجزاته (ﷺ) وبيانها؛ لأنها دليل قاطع على صدق نبوته، وفضلاً عن المعجزات المادية أيده الله تعالى نبيه (ﷺ) بالمعجزة العقلية التي كتب الله تعالى لها في سابق علمه الخلود على مر الدهور والعصور؛ وهي القرآن الكريم. وكثيراً ما وصف الشعراء هذه المعجزة وافتخروا بها، كذلك وصفوا منطقه (ﷺ) ومعجزاته كثيرة منهم وصف انشقاق القمر وحنين الجذع والذراع المسمومة وكلام الحيوانات معه وغيرها ووصفوا حياته كما كان يفعل الشاعر الجاهلي؛ لكن من اختلاف التوجه والتناول والعرض؛ وذلك لأن الإسلام سما بحسهم الأدبي وذوقهم الفني.

أشار الشعراء إلى السنة النبوية الشريفة وما فيها من معجزات، فضلاً عن ذلك فهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، كما شرحت وفصلت ووضحت ما جاء مجملاً في القرآن الكريم، وإلى هذا المعنى ذهب كعب بن زهير في اعتذاره للرسول (ﷺ) عندما شرح الله تعالى صدره للإسلام (فاعور، 1997).

مَهَلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ

ججج

ج

من المعجزات التي وصفها الشعراء معجزة الإسراء والمعراج ووصفها أبو بكر الصديق بقوله:
(البيطار، 1993).

عَجِبْتُ لِمَا أَسْرَى إِلَهِهُ بِعَبْدِهِ مِنْ الْبَيْتِ لَيْلًا نَحْوَ بَيْتِ مُقَدَّسٍ

ججج

هكذا نهض غرض الوصف عند شعراء المدينة وازدهر، وكانت محاور وصفهم للرسول (ﷺ) تدور في فلك وصف صفاته الخلقية والخلقية، وكذلك وصف المعجزات الحسية والمعنوية؛ التي أئده الله تعالى بها.

عليه نستخلص مدى النقلة النوعية؛ التي تمت في مضمار الشعر المدني؛ لأن الشعراء نظموا قوافيهم بروح إسلامية ترجمت سماحة الإسلام وتعاليمه السامية.

• شعر الجهاد:

"الجهاد لغة المشقة، وشرعاً هو بذل الجهد من المسلمين في قتال الكفار المعاندين المحاربين، والمرتدين، والبلغاة ونحوهم؛ لإعلاء كلمة الله تعالى" (ابن حجر، 2013)، ونزلت أول آية في الجهاد بالمدينة قال تعالى ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾ (الحج 39-40) وقال ابن عباس: "نزلت عند هجرة رسول الله (ﷺ) إلى المدينة" (القرطبي، 2006).

جند المسلمون أنفسهم للجهاد، وحمل جل شعراء المدينة لواء شعر الجهاد ورفعوا رايات التجديد وجادت قرائحهم بالنظم في هذا الضرب من الشعر، وهو من الموضوعات المستحدثة في أغراض الشعر؛ ووصفوا جهاده (ﷺ) وغزواته وسراياه وضروبوا الذكر صفحاً عن أيام الحرب وما فيها من إزهاق للعنصر البشري؛ فالجهاد من تعاليم الإسلام؛ وشرعه الله تعالى بنص الآية السابقة؛ ووصف الشعراء كل ما يدور في فلك الجهاد حتى أنهم وصفوا سياسته (ﷺ) في الحرب وتصريفه لشؤون الجند، وما يدور في هذا المضمار من شعر الحماسة واستنهاض الهمم، ومن الشعر الحماسي قصيدة أبي محجن النقي: (ابن سهل، د.ت).

لا تسألني الناس عن مالي وكثرتي وسألني القوم عن ديني وعن خلقي

جج

قد يعلم الناس أنا من سرّاتهم

ج

إذا سما بصراً الرعيديّة الفرق

ج

أعطي السنان غداة الرّوع نحلته

ج

وعامل الرّمح أرويه من العلق

ججججج

وأطعن الطعنة النّجلاء عن عرض

تتفي المسابير بالإزباد والفهق

ج

• شعر الزهد والوعظ:

من الموضوعات التي استحدثت، وشمل الوعظ جميع مناحي الحياة الدينية والاجتماعية، وكل ما يخص أمور المسلم في حياته، وكذلك شعر الزهد؛ وهو من الموضوعات التي تناولها ابن رواحه في شعره الإسلامي ولم يتناوله من قبل كما جاء في همزيته: (قصاب، 1981).

مَسِيرَةٌ أَرَبَعٌ بَعْدَ الْحِسَاءِ

إِذَا أَدَيْتِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي

ج

ججججج

وَلَا نَخْلٍ أَسَافِلُهَا رِوَاءِ

هُنَالِكَ لَا أَبَالِي طَلَعَ بَعْلٌ

ج

ج

نستنتج مما سبق؛ مدى تطور المجتمع المدني بفضل الهجرة النبوية الشريفة؛ إذ شمل التطور كل مناحي الحياة وكان للشعر نصيب طيب من هذا التطور، ونستخلص كذلك أن شعراء المدينة ساروا على نهج من سبقوهم من الشعراء؛ لكنهم تناولوا الأغراض الشعرية بروح إسلامية صادقة فأصبح الشعر المدني مرآة صادقة للمجتمع المدني؛ الذي وضع أسسه (ﷺ) بعد هجرته الميمونة؛ التي أضاءت دياجير الدنيا بأسرها.

كذلك نستنتج: أن الهجرة النبوية الشريفة أحدثت نقله نوعيه في الشعر الإسلامي؛ وهيأت له أسباب النهضة والإزدهار، واستنهضت همم الشعراء وحفزتهم؛ فوظفوا ملكاتهم الأدبية ومواهبهم الفنية؛ لخدمة الدعوة الإسلامية، كما استثمر الشعراء قوافيهم وجندوها؛ لدرء أعداء الدين؛ وهكذا ألهمت الهجرة النبوية الشريفة القرائح ورفدتها بكنوز نفيسه، كما ألهمت الشاعر وأصبحت من مثيرات الشوق والحنين للديار الحجازية المقدسة، والمرابع النبوية الشريفة - على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم.

ثانياً: تطور الصور الشعرية في القصيدة المدنية بعد الهجرة

ازدهرت الصورة الشعرية في الشعر المدني، ونهضت بالنص الشعري؛ لأنها ضمت تحت جناحيها مجموعة من المحاور منها: الأفكار والعواطف والأخيلة، والألفاظ، وكذلك الأسلوب، والموسيقى؛ وما تحمله بين ثناياها من وزن وقافية وما يتبع ذلك من الإيحاءات، وتتحد هذه المحاور في تناغم وإنسجام؛ لتشكل الإطار العام للصورة الشعرية، وعرفها عيكوس بقوله هي: "كل تعبير شعري ينقل إحساس الشاعر إلى المتلقي؛ فيثير انفعاله، وتحرك مخيلته، ويؤثر في فكره ووجدانه؛ بحيث يجبره على الاستجابة العاطفية أو النفسية المطلوبة، سواء كانت هذه الصورة المطلوبة تشبيهاً أو كناية أو لوناً من ألوان البديع..." (عيكوس، 1985) بينما ذهب الجاحظ إلى أن الشعر: "صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير" (الجاحظ، 1969).

عليه نستنتج أن الصورة الشعرية مرآة صادقة تعكس بوضوح الأفكار والأخيلة والمشاعر والأحاسيس، وهنا تكمن أهميتها، والمحور التالي سوف يبسط القول في هذه المحاور:

1. سمو العاطفة في الشعر المدني:

العاطفة تضم بين جنبها الفرح والحزن، وما يدور في فلكيهما من مفردات كثيرة حب وكرهية وغضب...، وتختلف آليات التعبير عن العاطفة من شخص إلى آخر بالكلام المنطوق المسموع أو بلغة الجسد؛ وكلها تعد من المعينات التي تساعد على ولادة النص الشعري، وعلى الشاعر أن يفسح المجال للجمهور لمشاركته في عواطفه وبالتالي في تجربته الشعرية، والعاطفة من المحاور الأساسية في مضمار النص؛ وهي نتاج طبيعي لموقف معين أو تجربة بعينها مر بها الشاعر قبل ولادة النص، وبتحاد الأفكار مع العواطف يستطيع الشاعر أن يشكل ملامح لوحته الفنية، ونلاحظ في عاطفة الشاعر المدني الصدق، وهو يستمد هذه العاطفة السامية من سماحة الدين الإسلامي؛ الذي غرس في النفوس العفاف والأمانة، وأمرهم بطاعة الرسول (ﷺ) وحبه فضلاً عن الصدق، كذلك نلاحظ المشاعر والأحاسيس مشحونة بالقيم الإنسانية؛ مما جعلها تتدفق بانسيابية.

2. معجم شعراء المدينة الشعري:

لم يختلف معجم شعراء المدينة الشعري، عن معجم الشعراء الجاهليين، كذلك عن معجم شعراء مكة، وكانوا جميعهم أصحاب بيان وبلاغة ومواهب فنية وملكات أدبية؛ وأشار عبد القادر القط: "ومن الملاحظ أن طائفة كبيرة من ألفاظ الشعر الجاهلي قد قل استخدامها بالتدرج؛ منذ ظهور الإسلام؛ حتى كادت تختفي تماماً؛ إلا ما كان منها عند بعض الشعراء المقلدين، أو الذين يقصدون قصداً إلى هذا الغريب بغية مجارة الفحول من القدماء" (القط، 1987)، وكان أهم رافد لمعجم شعراء المدينة القرآن الكريم، ونهلوا من معينه العذب، وأدهشتهم المفردة القرآنية برصانتها وجمالها وقدراتها

على الوصف والتعبير، كما رفدتهم السنة النبوية بمفردات نفيسة لم يسمع بها عرب الحجاز من قبل مثل قوله (ﷺ): "حَمِيّ الْوَطِيئِ" (النيسابوري، د.ت)، وكما هذب القرآن النفوس وسما بها؛ كذلك فعلت السنة النبوية، وهكذا ازدهرت الحياة الأدبية، ونشط الحراك الأدبي، وأفرز الحراك الأدبي نهضة شملت كل ضروب الأدب؛ والمتأمل لبردة كعب بن زهير يجدها أفسحت مساحة طيبة للمفردات الإسلامية؛ فقد ردد كلمة (نبي، رسول، الله) وفضلاً عن ذلك خاطب الرسول (ﷺ) بصفته التي أرسله الله تعالى بها (الرسول)، وهكذا ردد القرآن الكريم والسنة النبوية معجم الشعراء المدنيين بمفردات إسلامية؛ حتى وإن كان بعضها معروفاً لديهم؛ لكن اختلف استخدامها بعد نزول الوحي الكريم، مثل الجنة والنار كما في دالية النعمان بن بشير: (الجبوري، 1968).

سَيَجْعَلُ جَنَاتٍ النَّعِيمِ لِيَأْسَکُمْ
ج
إِذَا مَا التَّقِيْمُ أُيْکُمْ كَانَ أَسْعَدَا

جج
تَوَابًا بِمَا كَانُوا إِلَى اللَّهِ قَدَّمُوا
يَحَلُّونَ فِيهَا لَوْلَا وَزَبْرَجَدَا
ججج

لَهُمْ مَا إِسْتَهَتْ فِيهَا النُّفُوسُ وَلَذَّةَ الـ
عِيُونَ فَكَانَتْ مُسْتَقْرَأً وَمَقْعَدَا

المفردات القرآنية أكثر من أن تحصى، منها لفظ الشهيد والكفر والشرك والحساب والبعث والنشور؛ كذلك من المفردات التي أمدهم القرآن بها لفظ القيامة، كما ورد في دالية حسان بن ثابت: (مهنا، 1994).

وَمَا قَدَّ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ

3. ازدهار المعاني في الشعر المدني:

ظهر أثر المفردة السامية النبيلة في المعنى؛ لأن المفردة الشريفة تؤدي إلى المعنى الشريف، ولهذا أشار الجرجاني: "الألفاظ خدم المعاني والمصرفة في حكمها...، والمعاني هي المالكة لسياستها والمستحقة طاعتها" (الجرجاني، د.ت) والشاعر المتمكن من آلياته ومعداته الفنية، هو الذي يستطيع أن ينتقي مفرداته؛ ليعبر عن تجربته الشعرية بمعان تناسبها؛ لذلك نلاحظ أن بعض الشعراء اتكأوا على المعاني القديمة التي استخدمها الشاعر الجاهلي؛ خاصة تلك التي لا تتعارض من التعاليم الإسلامية؛ أي العادات والتقاليد الطيبة والصفات المحمودة التي آمن عليها الإسلام وأقرها ولم يرفضها، مثل الشجاعة والكرم وكل الفضائل والسؤدد، ولا عجب إذا مدحوا الرسول (ﷺ) بالجوهر والكرم والشجاعة والنخوة والوفاء بالعهد والمواثيق، وغيرها من مكارم الأخلاق الحميدة؛ لأنها كانت من قيمهم

التي لم يرفضها الإسلام، أما المعاني المستمدة من القرآن الكريم تدور في فلك التوحيد والإيمان بالله، وعدم الشرك به، وتصديق الرسول (ﷺ)، كذلك ما ورد في السنة النبوية الشريفة، وبعض المعاني مصدرها التراث الأدبي وكذلك الموروث الثقافي، وما ورد فيه من سير وأخبار وما اشتمل عليه من تجارب الأمم والشعوب، واجتمعت هذه العناصر المتباينة ورفدت الشاعر المدني بحزمة من المعاني؛ صبها في بوتقة تجربته الشعرية؛ فزادتها جمالاً واستحسنها الجمهور، ومن المعاني الإسلامية ما ورد على لسان النمر بن تولب (ت 14هـ)، (الطريفي، 2009).

أَعْذَنِي رَبِّ مِنْ حَصْرٍ وَعِيٍّ وَمِنْ نَفْسٍ أَعَالِجُهَا عِلَاجًا
وَمِنْ حَاجَاتِ نَفْسِي فَأَعْصِمَنِي فَإِنَّ لِمُضْمَرَاتِ النَّفْسِ حَاجَا
ججج
ج
وَأَنْتَ وَلِيُّهَا وَبَرِّئْتُ مِنْهَا إِلَيْكَ وَمَا قَضَيْتَ فَلَا خِلَاجَ
ج

4. تطور أخيلة الشاعر المدني:

الخيال هو الملكة؛ التي توصلنا إلى ماهية الأشياء وحقيقتها وهو: "القدرة على تكوين صورة ذهنية لأشياء غابت عن متناول الحس" (عصفور، 1992)، تأمل الشاعر المدني في ملكوت الله تعالى، ونظر فيما خلقه الله تعالى وسخره لمصلحة عباده، وتأمل في الغاية من استخلاف الإنسان ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة 30) وبالتالي ينال سعادة الدارين، وأصبح الشاعر يرى الحياة من منظور إسلامي، ثم اتكأ خياله على التراث، وما فيه تقاليد طيبة ووظف هذه الإيجابيات؛ لتشكل محاور إبداعه.

انطلاقاً من هذه المحاور رسم الشاعر المدني لوحاته الشعرية بدارية تامة؛ حيث وظف الخيال والصور البيانية في تشكيل لوحاته الفنية بدون مبالغة؛ أو جنوح نحو الكذب المحض، ويتصدر مصادر إلهام الشاعر المدني المربع النبوية الشريفة - على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم - كما ساعدته طبيعة البيئة المدنية الساكنة والمتحركة، وأصبحت من مصادر إلهامه؛ لما تتمتع به من مناخ طيب وزروع ونخيل.

5. التجديد في مطالع القصيدة المدنية:

طراً تجديد واضحٌ وبيّنٌ، في مطالع القصائد المدنية؛ عما كانت عليه القصيدة الجاهلية؛ حيث كان المطلع يدور في فلك المحبوبة (إما يتغزل الشاعر في محاسنها أو يذكر أطلالها) وفي صدر

الإسلام التفت الشعراء إلى الديار الحجازية المقدسة والمرابع النبوية الشريفة - على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم - ومن ذلك حنين الصحابي بلال بن رباح (رضي الله عنه) إلى مكة عند هجرته إلى المدينة، فيما ترويه السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: "وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا تَرَكَتُهُ الْخُمَى اضْطَجَعَ بِفَنَاءِ الْبَيْتِ. ثُمَّ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ فَقَالَ: (البخاري، 2002).

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيَّنَ لَيْلَةً بَفَجِّ وَحَوْلِي إِذْخِرُ وَجَلِيلُ

ج

جج

وَهَلْ أَرِدُنَ يَوْمًا مِيَاهَ مَجْتَّةٍ وَهَلْ يَبْدُونُ لِي شَامَةً وَطَفِيلُ

جج

الإذخِرُ والجليل وهما نبتان من الكلال طيب الرائحة يكونان بمكة. وشامة وطفيل من جبال بمكة أو موضعي ماء بها.

لم يصح شوقهم لسعدى وأسماء ولبنى والرباب وهند وليلى وغيرهن ولا لأطلالهن؛ بل ذرفوا الدمع السخين شوقاً وتحناً لزيارة الروضة الشريفة - على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم - من ذلك قول حسان بن ثابت: (مهنا، 1994)

بَطْيِيَّةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعَهُدُ مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفَوُ الرُّسُومُ وَتَهَمَدِ

وَلَا تَنَّمَحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ بِهَا مَنَبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ

وَوَاضِحُ آثَارِ وَبَاقِي مَعَالِمِ وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ

ج

ج

بِهَا حُجْرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطَهَا مَنْ اللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ

ج

ج

مَعَارِفُ لَمْ تُطْمَسَ عَلَى الْعَهْدِ أَتَاهَا الْبَلَى فَالْأَيُّ مِنْهَا تُجَدِّدُ

جج

ج

عَرِفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي الثَّرْبِ مُلْحِدُ

ج

أما عن هكيل بناء القصيدة المدنية فلم يحدث فيه أي تغيير، فقد سارت على نهج القصيدة الجاهلية، كما اتسمت بوحدة الموضوع، وحافظت القصيدة المدنية على البحور الخلية، والتزمت بالقافية.

6. سمو أسلوب الشاعر المدني:

من حيث الأسلوب نجد أسلوب الشعر الإسلامي عامة يمتاز بالرقّة والعذوبة؛ فضلاً عن الحلاوة؛ لأن الإسلام هذب السنة الشعراء ونفوسهم، كما تأثر الشعراء بأسلوب القرن الكريم؛ لكن هيهات لهم أن يأتوا بمثله على الرغم من فصاحتهم وبلاغتهم وشعراء المدينة لم يخرجوا عن هذه الدائرة؛ فكان شعرهم شجي مشحون بالعواطف الراقية الرقيقة؛ لأن التعاليم الإسلامية سمت بالشعور، وكان الشاعر المدني يعمد إلى اختيار المفردات الجزلة والرصينة، بحيث تتناسب مع ما يرمي إليه من معانٍ، ولم يكن يعمد إلى المحسنات البديعية؛ إلا ما يأتيه عفواً الخاطر، كذلك كان يلتزم بالوزن والقافية، وكان الجرس الموسيقي حصيلة هذا الالتزام.

لم يوشح الشاعر المدني عباراته بالغموض، لأن الفكرة واضحة في ذهنه؛ لذا اتسمت عباراته بالوضوح، وغالبًا ما يكون الخطاب الشعري المدني بصيغة الجمع؛ مما يعكس تعاليم الإسلام السمحة؛ التي تدعو إلى الترابط والتضامن بين المسلمين، وقد يلجأ الشاعر المدني في غزله إلى الرمز، ومن سمات الشعر المدني كذلك الواقعية؛ لأنه يستمد موضوعاته من الواقع الكائن أو الزاهن، فضلاً عن صورته وتشبيهاته، ومما ساعده على توليد الصور خياله الخصب ومخزونه من الموروث الثقافي والتراث الأدبي، واتسم شعره بدقة التصوير وتجلي في لوحاته الفنية؛ التي كانت تموج بالحياة والحركة، كما تنوعت أساليب الشعراء بين أسلوب الاستفهام والأمر والأسلوب القصصي وغيرها من الأساليب البلاغية، وأخلص إلى أن أسلوب الشاعر هو بصمته التي يضعها في النص ويتميز به الشاعر عن غيره من الشعراء.

7. أفكار الشاعر المدني بعد الهجرة:

الأفكار هي العمل الذي يقوم به العقل، حتى يتمكن من تصوّر شيء مجهول لاستحضاره، مثل التخيل والتذكّر والتمييز وغيرها، ويمتطي الشاعر الفكرة لي طرح موضوعاً من الموضوعات لمناقشته، والأفكار هي أساس العمل الفني، ومن خلالها يتمكن القارئ من استخلاص الهدف، والصور التي عبر عنها الشاعر.

بناء على ما سبق: يمكن أن نستخلص مدى النقلة النوعية؛ التي تمت في مضمار الشعر المدني؛ لأن الشعراء نظموا قوافيهم بروح إسلامية سامية، ترجمت سماحة الإسلام وتعاليمه، واتسم الشعر المدني بعدم التكلف؛ فضلاً عن قوة السبك وجمال الصورة الشعرية؛ وكانت المفردة السامية من أهم الأسباب التي مكنت الشعراء من هذه المحاور المهمة؛ وذلك لأن القرآن الكريم كان ينبعهم الصافي الذي رفدهم بالمفردة السامية، وكذلك كانت السنة النبوية نميرهم العذب؛ الذي رفدهم بدرر ثمينة؛ فضلاً عن الإنسيابية وحسن التخلص من غرض إلى آخر.

على سنة قد خلت كان الشاعر المدني يبدأ بالمطلع؛ فإذا أراد غزلياً سما بعواطفه وذكر محبوبته بعفة وحشمة، وإذا ذكر ديارها ومرابعها وقف وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه؛ ليؤدي بعض فروض الواجب والولاء لمورثه الأدبي، وإذا ذكر المشاعر الحجازية المقدسة هفت نفسه لزيارتها، وإذا افتتح قصيدته بذكر المربع النبوية الشريفة ذاب شوقاً وتحناً، وطمع في شفاعة سيد الخلق أجمعين (ﷺ)؛ وبعد ذلك يقبل بكلياته إلى الغرض الأساسي، الذي من أجله قصد قصيدته وهو مدح الرسول (ﷺ).

كان الجمهور المدني ذواقه وشكل محوراً من محاور نهضة الشعر المدني يومئذ؛ لأنه كان يرنو إلى معان سامية تترجم روح الإسلام وتعاليمه، لذا فجر الشعراء طاقاتهم الإبداعية، وملكاتهم الفنية وجادت قرائحهم بالدرر النفيسة.

النثر الفني هو الشق الثاني من الأدب، ولغة عرفه صاحب اللسان بقوله: "نثر الشئ رمى به متفرقاً" (ابن منظور، د.ت)، وفي الاصطلاح هو: "الكلام المرسل على نحو تلقائي، ولا يتقيد بوزن أو قافية" (فاخوري، 1986) وللنثر موسيقاه الخاصة؛ التي تتولد من السجع، وضروب النثر متعددة منه الخطب بأنواعها المختلفة، والرسائل والحكم والأمثال، والوعظ وغيرها من الضروب التي استحدثت لاحقاً أو حديثاً.

لقد تركت الهجرة النبوية الشريفة بصماتها الطيبة في النثر الفني، ونما وازدهر تحت مظلتها، وطرأت بعض ملامح التجديد في النثر الفني المدني، ونهض وازدهر، وتجلت هذه النهضة في الموضوعات، والمعاني والأسلوب، فضلاً عن الغاية أو الهدف منه.

أ. نهضة فن الخطابة بعد الهجرة:

الخطبة من فنون النثر الفني وتتم بين طرفين المرسل (الخطيب) والمستقبل أو المرسل إليه وهو الجمهور؛ ومطيتها الكلام أو القول، وهدفها استقطاب الجمهور؛ بغية التأثير فيهم، وجذورها ضاربة في عمق التراث الأدبي وعرفها أرسطو: "الكلام المقنع، وهي نوع من القياس" (صليبا، 1982) لقد استخدم الرجل البدوي الخطب في مقامات مختلفة، كما أعد وهياً لكل مقام ما يناسبه من الخطب، وتتمثل ملامح نهضة الخطبة المدنية في عدد من المحاور منها:

- **الافتتاحية:** حيث أصبحت الخطبة تفتح بالبسملة؛ وتسمى الخطبة التي لا تبدأ بالبسملة خطبة بتراء، والتي لا يذكر فيها الخطيب الصلاة والسلام على النبي بالشوهاد (الزمخشري، مادة خطب).
- **موضوع الخطبة:** من حيث الموضوع؛ أصبحت موضوعاتها تدور في فلك الدعوة إلى الدين الجديد، بعيداً عن التعصب والنعرات والعداوة والبغضاء.

- كثيرا ما كان يوشح الخطباء خطبهم بالآيات القرآنية، أو نصوصًا من السنة النبوية الشريفة، أو من الشعر الذي يدعو إلى السؤدد والفضائل؛ التي أقرها الإسلام، كذلك من الحكم والأمثال، وما يناسب المقام من وعظ وإرشاد وتوجيه؛ كما ورد في خطبة أبي الصديق (رضي الله عنه) في الأنصار حيث استشهد بأبيات لطيف الغنوي. وهو من فحول شعراء الجاهلية (ت13ق.هـ) وكان من أوصاف العرب للخليل - في خطبته التي يقول فيها: "يا معشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم في ظلالنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا قلتم: وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طيفيل الغنوي (القلقشندي، 1918).

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزَلَّتْ بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ
أَبَاؤُنَا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أَمَّنَا تُلَاقِي الَّذِي لَأَقْوَهُ مِنَّا لَمَلَّتِ
ججج
هُمُ اسْكُونُوا فِي ظِلَالِ بِيوتِهِمْ ظلالِ بِيوتِ أَدْفَاتٍ وَأَظَلَّتِ

- هذب الإسلام الخطيب شكلاً ومضموناً أي جوهره ومظهره ففي يوم الجمعة يتهاى للخطبة وهو في أحسن زي وأتم مظهر، كما هذب الإسلام روح الخطيب بالتحلي بتعاليم الإسلام السامية وقيمته، كما هذب لسانه وحسه الفني بتلاوة القرآن ومدارسته وكذلك فعلت السنة النبوية الشريفة، ووعى الخطيب أهمية استخدام الخطبة؛ كوسيلة من وسائل الدعوة إلى الله والذب عن محارمه.
- القرآن الكريم رقد معجم الخطيب المدني بمفردات؛ زادت من فصاحته وبلاغته؛ وبالتالي سما أسلوبه وارتقى. حسه الأدبي وذوقه الفني.

هيكل الخطبة:

- يتكون من ثلاثة أضلاع، كل ضلع له أهميته ووظيفته؛ التي تؤدي إلى نجاح الخطبة أو قبولها وهي:
- المقدمة: للمقدمة أهمية شبيهة بمطلع القصيدة؛ التي درج عليها الشعراء لأنها تحفز العقول وتستقطب القلوب للإستماع للنص، وكذلك المقدمة من شأنها أن تقوم بهذه الوظيفة المهمة؛ وعلى الخطيب أن يستهل خطبته بعبارات نافذة قوية؛ تشد العقول والقلوب حتى يقبل الجمهور على الاستماع؛ وبالتالي تحقق الخطبة الفائدة المنشودة منها، وهذه العبارات والجمل تعد مدخل تمهيدي لموضوع الخطبة؛ كذلك لا بد أن تكون العبارات والجمل وثيقة الصلة بموضوع الخطبة؛ حتى لا يتشتت الجمهور، واستوتفت أول خطبة جمعة بالمدينة للرسول (ﷺ) محاور المقدمة؛

حيث استهلها (ﷺ) بقوله: "الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأَسْتَغْفِرُهُ وَأَسْتَهْدِيهِ، وَأُؤْمِنُ بِهِ وَلَا أَكْفُرُهُ، وَأُعَادِي مَنْ يَكْفُرُهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَالنُّورِ وَالْمَوْعِظَةِ...". (صفوت، د. ت) ونلاحظ أن المقدمة استكملت عناصر المقدمة من بسملة وحمد واستغفار وطلب الهداية، والصلاة على الرسول (ﷺ).

• **الموضوع:** هو لب الخطبة؛ وفيه يتناول الخطيب الغرض الأساسي من الخطبة؛ وبالتالي يحدد نوعها بطريقة غير مباشرة، والموضوع دائماً يكون أطول أضلاع الخطبة، وي طرح فيه الخطيب موضوع الخطبة لذلك تحتل أكبر مساحة في هيكل الخطبة، ولا يمكن الاستغناء عن هذا المحور. ومن ذلك ما ورد في خطبة خالد بن الوليد عندما وصله كتاب أبي بكر الصديق وهو باليمامة؛ ولما فضه وعلم ما فيه قام وخطب "الحمد لله والله أهله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد فإن خليفة رسول الله (ﷺ) كتب إلينا يحضنا على طاعة ربنا وجهاد عدونا وعدو الله، وبالجهاد في سبيل الله أنجز الله دعوتنا، وجمع كلمتنا وأمنيتنا، والحمد لله رب العالمين، ألا إني خارج ومعسكر وسائر إن شاء الله ومعجل، ومن أراد ثواب العاجل والآجل فليتكلمش" (صفوت، د. ت).

أما التغيير الذي طرأ على الخطب المدنية، نلاحظه من ناحية الموضوع؛ إذ أصبحت موضوعات الخطب دينية وأعلنت الخطابة الإسلامية من كعب خطب الفتوح والزواج والوعظ والإرشاد والخطب السياسية، ومن موضوعاتها كذلك الدعوة إلى التوحيد والتحلي بالتعاليم الإسلامية والدعوة إلى الجهاد، بعيداً عما ألفوه في فترة الجاهلية من سلب ونهب وقتل، والدعوة إلى الحرب، واستمد معجم الخطيب مفرداته من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وإذا كانت الخطب في العصر الجاهلي يحكمها التعصب القبلي، فالخطب المدنية هاديتها القرآن الكريم، الذي أحدث نقلة كبرى في عاطفة الخطيب ولسانه وأسلوبه.

• **الخاتمة:** اسمها يدل على معناها؛ إذ يذكر فيها الخطيب خلاصة ما أشار إليه في خطبته، وكأنه يُذكر الجمهور بالمحاور الرئيسية التي طرحها؛ وهناك وجه شبه بين المقدمة والخاتمة؛ من حيث الطول وقوة الجمل والعبارات المستخدمة.

خلاصة القول في هذا المحور؛ لم يحدث أي تغيير على هيكل الخطبة في صدر الإسلام، وسار الخطباء على درب أسلافهم القدماء. بينما طرأ التطور والتجديد في موضوع الخطبة، وأسلوب الخطيب.

تتناول خطباء المدنية وفي مقدمتهم الرسول (ﷺ) أنواع شتى من الخطب منها: السياسية والدينية والاجتماعية والحربية. ويجمع بين هذه الضروب المختلفة الهيكل العام للخطبة الذي يتكون من المقدمة والموضوع، ثم الخاتمة.

وتدور موضوعاتها في فلك الدعوة إلى الإيمان بالله رباً والقرآن كتاباً وبمحمد (ﷺ) نبياً ورسولاً، ويوم دخل المدينة خطب (ﷺ) في الناس؛ وبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله، قال: أَمَا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ. تَعَلَّمَنَّ وَاللَّهِ لِيُضَعَّعَنَّ أَحَدَكُمْ، ثُمَّ لِيَدَعَنَّ غَنَمَهُ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ، ثُمَّ لِيَقُولَنَّ لَهُ رَبُّهُ، وَلَيْسَ لَهُ تَرْجُمَانٌ وَلَا حَاجِبٌ يَحْجُبُهُ دُونَهُ: أَلَمْ يَأْتِكِ رَسُولِي فَبَلَّغَكَ، وَأَتَيْتُكَ مَا لًا وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكَ؟ فَمَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَلْيَنْظُرَنَّ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَا يَرَى شَيْئًا، ثُمَّ لِيَنْظُرَنَّ قُدَامَهُ فَلَا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّمَ. فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِيَ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ مِنْ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنَّ بِهَا تُجْزَى الْحَسَنَةُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ صَعْفٍ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ" (صفوت، د. ت). وجاءت خطبته (ﷺ) شاملة جامعة لكل عناصر الخطبة من مقدمة وموضوع وخاتمة، ناهيك عن قوة سبكها وفصاحتها وبلاغتها، وأسلوبها وهكذا تحقق الخطبة الغاية منها؛ وهي الدعوة إلى الله تعالى.

أعلت الخطابة الإسلامية من كعب خطب الفتوح ورفعت من شأنها، وكذلك الحال بالنسبة لخطب الزواج، وخطب الوعظ والإرشاد، والخطب السياسية ومن موضوعاتها كذلك الدعوة إلى التوحيد والتخلي بالتعاليم الإسلامية والدعوة إلى الجهاد، بعيداً عما ألقوه في فترة الجاهلية من سلب ونهب وقتل، والدعوة للحرب. واستمد معجم الخطيب مفرداته من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وإذا كانت الخطب في العصر الجاهلي يحكمها التعصب القبلي، أحدثت الهجرة النبوية الشريفة نُقله كبرى في توجه الخطيب؛ إذ أصبحت تنطلق من تعاليمه الإسلامية.

نستنتج أن الرسول (ﷺ) كما اتخذ من الشعر سلاحاً اتخذ (ﷺ) من فن الخطابة وسيلةً لإبلاغ الدعوة، ووظف الأدب بشقيه واستثمره للدعوة لدين الحق، والذب عن محارم الله تعالى، ولدحر أعداء الله ورسوله الكريم (ﷺ).

● توظيف الرسائل لخدمة الدين:

بعد الهجرة النبوية الشريفة، استقرت الدولة الإسلامية، عندئذ أراد الرسول (ﷺ) أن تخرج الدعوة من أرض الحجاز إلى العالم؛ فأصبحت الحاجة ماسة لآليات جديدة للدعوة الإسلامية، فاتخذ الرسول (ﷺ) من الرسائل - أو ما يعرف بالترسل، وألف شهاب الدين الحلبي كتابه الموسوم بـ "حسن التوسل إلى صناعة الترس" تحدث فيه عن الرسائل الديوانية - وسيلة لإبلاغ العالم بالدين الجديد، وهكذا نهضت الرسائل بمهمة عظيمة؛ وهي إبلاغ الدعوة إذ نالت شرف حمل رسائله الشريفة (ﷺ) وطاقات بها خارج أرض الحجاز.

كان عرب الحجاز يعرفون الرسائل ويسمون التي تُحمل من بلد إلى بلد المُغْلَعَةُ؛ والدليل على ذلك قول عمرو بن معد يكرب: (الطرابيش، 1985)

مَنْ مُبْلِغٌ عَامراً مَتِي مُغْلَغَلَةً أبا عليّ مقال الحقّ يُعْتَرَفُ

أشار ناصر الدين الأسد: "من يقرأ أخبار الجاهلية في كتب الأدب أو التاريخ، يعجب لكثرة رسائلهم آنذاك، ويكاد يلمس أن كتابة الرسائل في الجاهلية أمراً مألوفاً ميسوراً شائعاً في شتى الشؤون" (الأسد، 1988) كانوا يكتبون رسائلهم والدليل على معرفتهم الكتابة؛ عندما نزل القرآن خاطبهم من جنس الشبي الذي يعرفونه وورد في كثير من الآيات ذكر الكتابة وأدواتها. (البقرة 282)

من أهم سمات الرسائل النبوية أن الرسول (ﷺ) كان يتوخى إذا كتب لغير العرب أن يوجز القول، ويقل من اللفظ؛ الذي لا يفهمه كل إنسان؛ حتى يسهل نقل كلامه إلى ألسن من كتب إليهم من غير العرب، كما كان إذا خاطب قبائل من غير قريش أو كاتبهم يستعمل ألفاظاً مألوفة لا يعرفها القريشيون ذلك لأن، مقصده الإفهام، والبلغ من الكلام ما فهم وأبقى في النفس أثرًا" (علي، 2012)، وطاقات رسائله البلدان وبلاط الملوك والأكاسرة والرؤساء من مختلف الملل والنحل وما كان للرسالة أن تجد هذا الاهتمام أو الحظوة لولا أن الرسول (ﷺ) وظفها للدعوة.

حظيت الرسالة بإهتمام في فترة الدعوة؛ لأنها حملت على عاتقها مهمة نشر الدين الإسلامي، ونهضت بهذه المهمة العظيمة، وأصبحت من بين آليات الدعوة للدين الجديد، مما جعلها تزدهر، وشمل التطور جميع أجزاء الرسالة وهي المقدمة والعرض والخاتمة: "ورسالته (ﷺ) إلى هرقل نموذج يوضح أجزاء الرسالة؛ التي اكتملت عناصرها: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى".

أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمُ تَسْلَمَ يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ. فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيَّكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ (وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمُ تَسْلَمَ يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ. فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيَّكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ - الأريسيين: الناس البسطاء، أو عامة الشعب، وكانت العرب تسميهم الفلاحين - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران 64) (صفوت، 1937) ونلاحظ أن الآية المقتبسة تصب في موضوع الرسالة؛ وهو الدعوة إلى الإيمان والتوحيد. وسار أصحابه الكرام على نهجه (ﷺ) في كتابة الرسائل، ومنهم خالد بن الوليد؛ عندما خاطب أهل فارس يدعوهم للإسلام: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَى رُسْتَمَ وَمِهْرَانَ، وَمَالِ فَارِسَ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّا

نَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أْبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ، فَإِنْ أْبَيْتُمْ، فَإِنَّ مَعِيَ قَوْمًا يُحِبُّونَ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا تُحِبُّ فَارِسُ الْخَمَرِ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى" (صفوت، 1937).

ازدهرت الرسالة بعد الهجرة النبوية ازدهارًا متميزًا، جوهرًا ومظهرًا، شكلاً ومضمونًا؛ إذ أصبحت نُفْتَحُ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ثم الحمد والثناء لله بما هو أهله، والصلاة والسلام على الرسول الكريم (ﷺ)، وتتفق الرسالة مع الخطبة - أي رسالة لا تبدأ ببسم الله تسمى البتراء أي المقطوعة، والتي لا يذكر فيها الصلاة والسلام على النبي تسمى الشوواء - (الزمخشري مادة خطب) أي ممسوخة الملامح، كذلك من أهم محاور نهضتها الاقتباس من القرآن الكريم حسب موضوع الرسالة؛ مما يدعم المعنى ويقويه، ويرتقى بمستوى فصاحة النص، وبأسلوب الكاتب؛ كذلك من مظاهر نهضتها كان الرسول (ﷺ) يمهرها بخاتمة الشريف في نهايتها وسار على هذا النهج الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم).

من أهم المحاور التي أدت إلى تطور الرسائل في العهد النبوي الأيجاز؛ كما لاحظنا في رسالته لهرقل، الكلمات قلائل لكنها تحمل العديد من المعاني والدلائل، وهنا يكمن سر بلاغة الرسالة وفصاحتها، وهذه الخاصية أدت إلى ازدهار الرسالة وتطورها، كذلك مكنت الرسالة من تحقيق الغاية المنشودة والهدف من كتابتها وإرسالها وهي الدعوة إلى الدين الإسلامي. ومن أسباب نهضة الرسائل في العصر النبوي وازدهارها نهجه (ﷺ) إذ كان يحض: "المسلمين والصحابة على التعلم، وأمره أيهم بتعلم الكتابة" (الأسد، 1988) كما كان يطلب من الأسرى تعليم أولاد المسلمين الكتابة، ونهضت الرسائل كذلك؛ لأن الرسول (ﷺ) كان يتخير العبارات الموجزة السهلة لغير العرب حتى لا يستعصي عليهم فهمها. وكان للفتوحات الإسلامية بالغ الأثر في تطور الرسائل ونهضتها.

من السلبيات التي تخلصت منها الرسالة المدنية السجع؛ لأن الرسول (ﷺ) نهى عنه؛ لما به من تشدق، ونفى الله تعالى عن نبيه سجع الكهان... ، ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴿ (الحاقة 24) أشار أبو هلال العسكري إلى التشابه بين الرسالة والخطبة وذكر التداخل بينهما حيث يقول: "الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل؛ فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة؛ وكذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل؛ ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها؛ والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة" (العسكري، 1952).

هكذا تطورت الرسائل في العهد المدني؛ إذ ارتقت من حيث العبارات والجمل وسمت وازدهرت؛ لأن مفرداتها استندت على لغة القرآن الكريم، فسمت أسلوبها بسمو لغة كاتبها، ومجمل القول: لقد

كسى الإسلام هذا الضرب من ضروب النثر الفني ثوباً جديداً، استمد جماله وألقه من سماحة الإسلام، وحسب الرسائل أو فن الترسل من الفخر أن الرسول (ﷺ) اتخذها آلية من آليات الدعوة.

الحكمة تنهض بأعباء الدعوة الإسلامية:

الحكمة معانيها كثيرة ومتعدد ومنها: "معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم" (ابن منظور، باب الميم) وهي فن من فنون الأدب، والحكيم المتقن للأمور وقد تأتي في قوالب شعرية أو نثرية، قال (ﷺ): "إن من الشعر حكمة" (البخاري، 665)، ومن الحكم الشعرية قول أبي الأسود الدؤلي (الطرايش، 1985).

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَا رَهْطُهُ فِي شَبَابِهِ *** فَلَا تَرُجُ مِنْهُ الْخَيْرَ عِنْدَ مَشِيْبِ

جذور الحكمة ضاربة في عمق التراث العربي، وكانت الحكمة تلازم الرسول (ﷺ) في كل أمر من أمور الدعوة وهو القائل: "فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ (ﷺ)، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطُسْتٍ مِنْ دَهَبٍ مُمْتَلِيٍّ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَعَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَفَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا..." (البخاري، 148).

مما يؤكد أهمية الحكمة كوسيلة من وسائل الدعوة لله؛ لأنها تحمل في أحشائها العظة والعبرة وقال (ﷺ): "الحِكْمَةُ صَالَةٌ الْمُؤْمِنِ" (الترمذي، 2687)، ونهضت الحكمة بأعباء الدعوة الإسلامية وازدهرت، وأصبحت من أهم آليات الدعوة؛ لأنها أسلوب يتراوح بين اللين والرفق؛ بعيداً عن العنف والشدة فتميل إليها القلوب وترتاح لها النفوس، وحتى في استخدام أسلوب الجدل الذي يحترم ثقافة الآخر ويأتي بالحجة والبرهان من أجل الإقناع؛ لأنها تخاطب العقل، ولا يعني هذا الخضوع الضعف أو الاستسلام فإذا كان الموقف يحتاج إلى قوة وثبات في الرأي فمن الحكمة اختيار ما يناسب الموقف أو الحدث؛ لأن الداعية عليه أن يأخذ بالأسباب التي تبلغه مراده، قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ رَئِيكَ الْحَسَنَةَ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل 125) ومن سمات الحكمة التروي والصبر والحكمة تأثير قوي وفعال؛ لذا ازدهرت في فترة النبوة لأن الرسول (ﷺ) كان يخاطب الكفار بتمهل ورؤية وبعبارات موجزة كلمات قلائل؛ ولكنها تحمل العديد من الدلائل فسرعان ما يستوعبها العقل أو الذاكرة الحافظة، ومن أسباب نهضتها كذلك أن الرسول (ﷺ) اتخذها وسيلة لتعليم العامة والخاصة وكان لا يشق على الناس بما يمتله من أساليب مختلفة منها؛ عنصر التشويق، ويقرب لهم المعاني ويبسط شرحها؛ وسار على نهجه صحابته الكرام.

الأمثال تواكب مسيرة الدعوة الإسلامية:

المثل نص أدبي؛ قد يأتي في قوالب شعرية أو نثرية، وأيا كانت أوعيته ومواعينه فهو: "جملة من القول مقتطعة من كلام أو مرسله لذاتها تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهة بلا تغيير مثال ذلك "الصيف ضيعت اللبن"، يقال المثل لمن لم يستفد من الفرصة المناسبة في وقتها وحاول ذلك متأخراً" (عبد النور، 1984) وعادة لا يصدر إلا من شخص حكيم له خبرة ودارية ببواطن الأمور؛ فيعجم خبرته ويصحبها في قوالب أدبية ويعبر عن الواقع الراهن في عبارات موجزة كما قال الزمخشري: "أوجزت اللفظ، فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة، فأطالت المغزى" (الزمخشري، 1977) والمثل أصوله تمتد إلى العصر الجاهلي، وما ضرب الله تعالى في كتابه العزيز الأمثال إلا لأنهم كانوا يعرفونها ويعرفون أهميتها وفائدتها قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر 21)، واهتم التراث الأدبي بالمثل؛ لأنه من العوامل التي نقلت التجارب الحياتية، وأحوال المجتمع بكل ألوان طيفها؛ وصور الحياة الإجتماعية وجسد الحياة الفكرية والتاريخية والسياسية وغيرها، وغالبًا ما يواكب روح العصر، ومن ذلك المثل الجاهلي الذي يقول: "أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا" وحسب المفاهيم الجاهلية نجد أن هذا المثل يدعو إلى روح العصبية؛ التي كانت سائدة في العصر الجاهلي وبشروق الإسلام تحول مفهوم هذا المثل الجاهلي إلى معنى سامي ضابطه الشريعة الإسلامية التي تدعو إلى التناصح والشورى ورفض الظلم وفيما يرويهِ أنس عن الرسول (ﷺ): "أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا" فقال رجل: يا رسول الله، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحَجِّرُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظلم فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ" (البخاري، 6552) ومن أهم سمات المثل ان النفس البشرية تألفه بل يؤثر فيها؛ لذا تنقاد له، والمثل كجنس أدبي سجل حضورًا متميزًا في المشهد الثقافي المدني، ولم يتخلف عن مسيرة الدعوة الإسلامية، ولم يتخل عن مواكبة تحديات الجسام التي واجهت الدعوة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم - بل أدلى بدلوه مع صنوف الأدب المختلفة لنصرة الإسلام.

من المؤشرات المهمة، التي تدل على نهضة المثل وتطوره حديث (انصُرْ أَخَاكَ...،) فقد تحول من عصبية الجاهلية إلى سماحة الإسلام؛ مما يدل على تطور فكرة المثل وما يحمله من مضامين سامية؛ مع ملاحظة أن هنالك العديد من الأمثال التي رفضها الواقع المجتمع المسلم؛ لأنها تتعارض مع تعاليم الإسلام؛ لذا استخدم (ﷺ) المثل ونهض مع الآليات الأخرى التي استخدمها ليقوم بمهمة الدعوة إلى الدين الجديد؛ لما يتمتع به من آليات تمكنه من تقريب المعاني والتعاليم الإسلامية إلى الأذهان، لأنه شديد الصلة بواقع المجتمع، فضلًا عن قوة تأثيره في المتلقي، كذلك من أسباب ازدهاره كونه يمتلك خاصية وضع الأشياء المعنوية في قوالب محسوسة، كذلك من أسباب نهضته أن الرسول (ﷺ) اتخذ ذلك وسيلة تعليمية تربوية للنهوض بمستوى المسلم وبالمجتمع المدني ومن

ذلك قوله: "اليُدُّ العليا خيرٌ من اليُدِّ السفلى" (البخاري، 1372) وقوله كذلك: "الحياءُ من الإيمان" (البخاري، 24) فقد صاغ (ﷺ) التعاليم الإسلامية التي تنفع المسلم في حياته في أمثال حتى ترسخ في الأذهان ويسهل حفظها وبالتالي العمل بها، كما كان (ﷺ) يعمد إلى التنوع في الأمثال لمعالجة العديد من الأمور، ولذا كان ينتقي كل مثل ما يناسبه من الآليات التي تجعله فعالاً.

هكذا واكب المثل العصر الإسلامي ومواكبته لروح العصر من أهم السمات التي تدل على أهميته؛ لذا حرص الرسول (ﷺ) على المثل؛ لما يتمتع به من مميزات؛ لأنه تمكن من تجسيد الصور، وجعلها في متناول مختلف أفراد المجتمع مع تباين فروقاتهم وقدراتهم العقلية.

• بصمات الهجرة النبوية في فن الوصية:

الوصية من ضروب النثر الفني، وأعظم الوصايا على الإطلاق التي وردت على لسان الحق عز وجل في آيات كثيرة منها: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ...﴾ (الأحقاف 15) وأي وصية من عند الله فهي فرض، كما أوصى لقمان ابنه ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان 19) ثم تأتي في المرتبة الثانية وصاياه (ﷺ).

الوصية أصولها ضاربة في عمق التراث الأدبي، وتصدر عن خبرة وتجربة من شخص حكيم عرك الحياة وعركته، وفي أبسط معانيها هي مشتقة من وصية الشي؛ لأن الموصي به وصل ما قبل الموت وهذا بعد الموت (ابن منظور، مادة وصى) واستخدمت في التراث الأدبي؛ كآلية من آليات النصح والإرشاد والتوجيه، ومنها على سبيل المثال وصية أمامة بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها" (ابن عبد ربه، 1983)، ووصية دريد بن الصمة لبنيه؛ عندما حضرته الوفاة (صفوت، د. ت) وغيرها من الوصايا؛ التي تناولت موضوعات متباينة.

بعد نزول الوحي؛ تطور هذا اللون من الفن النثري - الوصايا - لما تتمتع به من خصائص وسمات تحقق الهدف المنشود منها، ومن أهم سماتها تسلسل الأفكار وترتيبها وترابطها، وتأتي في قوالب لغوية سهلة؛ مما يؤدي إلى وضوح المعنى، فضلاً عن الجرس الموسيقي؛ الذي ينجم من تكرار المفردات.

أما هيكل الوصية بغرض النظر عن طولها أو قصرها فهيكلا شبيه بهيكل الخطبة أي مقدمة وموضوع وخاتمة. لقد تركت الهجرة النبوية الشريفة بصماتها الطيبة في الوصية؛ من حيث التناول والأسلوب والمفردات والمعاني والغرض المطلوب، تأثرت الوصية بأسلوب القرآن الكريم، كما تأثرت الخطبة من قبل، وتناولت موضوعات مختلفة؛ منها الدينية والسياسية والاجتماعية، ومن وصاياه (ﷺ) في خطبة حجة الوداع: "أيها الناس إنَّ لكم على نساءكم حقاً ولنساءكم عليكم حقاً...، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنَّ خيراً" (البخاري، 4134) وعلى نهج الشريف (ﷺ) سار صاحبه الكرام

(رضي الله عنهم)، ومن ذلك وصية أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد قائد جيوش المسلمين في حربهم ضد الروم (1هـ): "يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً أو شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام؛ فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء؛ فاذكروا اسم الله عليها...، اندفعوا باسم الله" (ابن الأثير، 1987).

نستنتج مما سبق: أن الهجرة النبوية الشريفة، أحدثت نقلة نوعية في المشهد الثقافي بالمدينة، وازدهرت الحياة الأدبية وظهرت العديد من ملامح التجديد في النصوص الأدبية؛ فقد هذب الإسلام نفوس الأدباء (الشعراء والخطباء) وظهرها من رجس الجاهلية والشرك بالله تعالى، وتوجهوا بكلياتهم إلى عبادة الله تعالى، كما سما بحسبهم الأدبي وذوقهم الفني وجادت قرائحهم بالدرر النفيسة، وأدى هذا الحراك الأدبي إلى سمو ذائقة العامة من الجمهور؛ فسمى حسبهم الأدبي، وكانت هذه البداية لنقطة تحول هامة جداً في حياتهم، وعلامة فارقة في مسيرة الأدب؛ بعد الهجرة النبوية الشريفة.

النتائج:

- استقرت الحياة في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية الشريفة، وازدهرت في شتى المناحي، ونشط الحراك الأدبي، والثقافي والفكري، وأبرز هذا الحراك نهضة شملت كل ضروب الأدب.
- أحدثت الهجرة النبوية الشريفة نقلة نوعية في الأدب الإسلامي؛ وهيات له أسباب النهضة والازدهار، واستنهضت همم الشعراء والخطباء وحفزتهم؛ فوظفوا ملكاتهم الفنية ومواهبهم؛ لخدمة الدعوة الإسلامية، وتم توظيف الكلمة المنظومة والمنثورة، لدرء أعداء الدين؛ وهكذا ألهمت الهجرة النبوية الشريفة القرائح ورفدتها بكنوز نفيسه، كما ألهمت المشاعر وأصبحت من مثيرات الشوق والحنين للديار الحجازية المقدسة والمرايع النبوية.
- تمثلت النقلة النوعية؛ التي تمت في مضمار الشعر المدني، في الروح الإسلامية التي نظم بها الشعراء قوافيهم التي ترجمت سماحة الإسلام وتعاليمه. واتسم الشعر المدني بعدم التكلف؛ فضلاً عن قوة السبك وجمال الصورة الشعرية.
- ازدهر الأدب بعد الهجرة النبوية ازدهاراً متميزاً، جوهرًا ومظهرًا، شكلاً ومضمونًا واستثمره الرسول (ﷺ) بشقيه؛ ووظف طاقات الأدب الإبداعية للدعوة الإسلامية، واتخذ منه سلاحًا للذب عن محارم الله تعالى والدفاع عن حياض الإسلام، وكان لتحفيزه المادي والمعنوي للشعراء والخطباء من أهم أسباب نهضة الأدب.

- كان لجمهور المدينة الذين شرح الله صدورهم للإسلام؛ اليد الطولي في نهضة الشعر؛ فقد عافت نفوسهم الشعر المبتذل؛ وأصبح الجمهور المدني يتطلع إلى معان سامية تترجم روح الإسلام وتعاليمه؛ لذا فجر الشعراء طاقاتهم الإبداعية، وملكاتهم الفنية وجادت قرائحهم بالدر النفيسة. وبسمو الذوق الفني والحس الأدبي للأدباء سمت الذائقة الفنية للجمهور.
- سار شعراء المدينة على نهج من سبقوهم من الشعراء؛ لكنهم تناولوا الأغراض الشعرية بروح إسلامية صادقة؛ فأصبح الشعر المدني مرآة صادقة للمجتمع المدني؛ الذي وضع أسسه (ﷺ) بعد هجرته الميمونة؛ التي أضاءت دياجير الدنيا بأسرها. كما استحدث الشاعر المدني بعض الأغراض الشعرية؛ لتناسب طبيعة المرحلة أو لتواكب مسيرة الدعوة الإسلامية.
- التزم شعراء المدينة ببناء القصيدة الجاهلية من حيث الهيكل، كما حافظت القصيدة المدنية على البحور الخلية، فضلا عن التزامها بالقافية. وبعد الهجرة غير الشعراء في المطالع فأصبح الحنين إلى المشاعر المقدسة والمرايع النبوية الشريفة.
- صفوة القول وخلاصته: أحدثت الهجرة النبوية الشريفة؛ نقلة نوعية في النفوس التي آمنت بالله رباً وبمحمد (ﷺ) نبياً ورسولاً وبالقرآن كتاباً، كذلك أحدثت نقلة نوعية متميزة في المشهد الثقافي بالمدينة، وهكذا ازدهر المجتمع المدني في شتى المناحي واستتب الأمن واستقرت الأوضاع السياسية والاجتماعية، وازدهرت الحياة الاقتصادية، مما أدى إلى ازدهار الحياة الأدبية وتطورها وظهرت العديد من ملامح التجديد في النصوص الأدبية؛ فقد هذب الإسلام نفوس الأدباء وطهرها من رجس الجاهلية والشرك بالله تعالى، كما سمى بحسهم الأدبي وذوقهم الفني، وجادت قرائحهم بالدر النفيسة، وأدى هذا الحراك الأدبي إلى سمو الذائقة العامة من الجمهور؛ فسموا بحسهم الأدبي، وكانت هذه البداية لنقطة تحول هامة جداً في حياتهم، وعلامة فارقة في مسيرة الأدب بعد الهجرة النبوية الشريفة. المشهد الثقافي بالمدينة.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم. (1987م). الكامل في التاريخ. تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني. (2013م). فتح الباري بشرح صحيح البخاري. تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد. دمشق: مؤسسة الرسالة.
- ابن سهل، أبو هلال عبد الله. (د. ت). ديوان أبي محجن الثقفي. القاهرة: مطبعة الأزهار.

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد. (1983م). العقد الفريد. تحقيق مفيد محمد قميحة. مصر: دار الكتب العلمية.
- ابن هشام، محمد بن عبد الملك. (1990م). السيرة النبوية (سيرة ابن هشام). بيروت: دار الكتاب العربي.
- الأسد، ناصر الدين. (1988م). مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. القاهرة: دار المعارف.
- بالي، وحيد. (2003م). الخلاصة البهية في ترتيب أحداث السيرة النبوية. مصر: دار ابن رجب.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (2002م). صحيح البخاري. بيروت: دار كثير.
- البيطار، محمد شفيق. (1993م). ديوان أبي بكر الصديق. (د. م). دار شرع.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1969م). كتاب الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون. بيروت: دار إحياء التراث.
- الجبوري، يحيى. (1968م). شعر النعمان بن بشير الأنصاري. بغداد: دار المعارف.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر. (د.ت). أسرار البلاغة. جدة: دار المدني.
- الجمحي، محمد بن سلام. (1974م). طبقات فحول الشعراء. تحقيق محمود شاكر. القاهرة: مطبعة المدني.
- حمدو، طماس. (2004م). ديوان الخنساء. بيروت: دار المعرفة.
- الحموي، ابن حجة. (د.ت). خزانة الأدب. تحقيق عصام شعيتو. بيروت: مكتبة دار الهلال.
- حوي، سعيد. (1995م). كتاب الأساس في السنة وفقهها. السيرة النبوية. سوريا: دار السلام للنشر والتوزيع والترجمة.
- السكري، أبو سعيد. (1989م). ديوان كعب بن زهير. شرح مفيد قميحة. الرياض: دار الشواف للطباعة والنشر.
- شوشة، فاروق، مكي، محمود على. (2007م). معجم مصطلحات الأدب. القاهرة: مجمع اللغة العربية.
- صفوت، أحمد زكي. (د.ت). جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة. بيروت: المكتبة العلمية.
- صليبا، جميل. (1982م). المعجم الفلسفي. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- الطرايش، مطاع. (1985م). ديوان عمرو بن معد كرب الزبيدي. سوريا: مطبوعات مجمع اللغة العربية.

- الطرابيش، مطاع. (1985م). ديوان عمرو بن معد كرب الزبيدي. سوريا: مطبوعات مجمع اللغة العربية.
- الطريفي، يوسف عطا. (2009م). شعراء العرب عصر صدر الإسلام. الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع.
- عبد الجابر، سعود محمود. (1984م). شعر الزبير بن بدر وعمرو. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- عبد النور، جبور. (1984م). المعجم الأدبي. بيروت: دار العلم للملايين.
- العسكري، أبو هلال. (1952م). كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. تحقيق علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- عصفور، جابر. (1992م). الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- علي، محمد كرد. (2012م). أمراء البيان. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- عيكوس، الخضر. (1985م). الصورة الشعرية في القصيدة الجاهلية. (د. م).
- فاخوري، حنا. (1986م). الجامع في تاريخ الأدب العربي الحديث. بيروت: دار الجيل العربي.
- فاعور، علي. (1997م). ديوان كعب بن زهير. بيروت: دار الكتب العلمية.
- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر. (2006م). تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- قصاب، وليد. (1981م). ديوان عبد الله بن رواحه ودراسة في سيرته وشعره. القاهرة: دار العلوم للطباعة والنشر.
- القط، عبد القادر. (1987م). في الشعر الإسلامي والأموي. لبنان: دار النهضة العربية.
- القلقشندي، أبو العباس. (1918م). القاهرة: المطبعة الأميرية.
- المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران. (2005م). معجم الشعراء. تحقيق فاروق أسليم. بيروت: دار صادر.
- مهنا، عبدأ. (1994م). ديوان حسان بن ثابت. بيروت: دار الكتب العلمية.
- النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد. (د.ت.). مجمع الأمثال، بيروت: دار المعرفة.
- هيكل، محمد حسنين. (1977م). حياة محمد، القاهرة: دار المعارف.